أدب المرأة في العصر العباسي وملامحه الفنية

الدكتور خالد الحلبوني[*]

الملخص

شاركت المرأةُ الرجلَ – في العصر العباسي – في الحياة الثقافية، فكانت شاعرة وناثرة يُشار إليها بالبنان.

وقد برعت طائفة من النساء في قول الشعر من خلال موضوعاته المختلفة، كالغزل، والزهد، والرثاء، والمديح، والهجاء، وكن من الحرائر والجواري.

وأثبتت المرأة – كذلك – مكانتها المعرفية في ميدان النثر، وبرعت في موضوعين رئيسين، هما: أدب المراسلات الشخصية، وأدب التوقيعات.

كانت مشاركة المرأة العباسية استجابة للثقافة الواسعة آنذاك، وتلبية لنداء الحضارة المنفتحة على ألوان المعارف، والتمازج الثقافي آنذاك؛ مما يشير إلى القدرة العقلية، والنشاط الفكري، والدور الرائد الذي اضطلعت به المرأة، فكان بيانها مشرقاً، وأدبها جميلاً إلى حدّ كبير.

---

[*] قسم لغة عربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق

تمهيد:

إن ما وصل إلينا من أدب المرأة قليل جداً بالنسبة إلى أدب الرجال؛ عبر مسيرة الأدب العربي، وثمة أسباب عدة تكمن وراء ذلك، ومنها:

أ – النظرة غير الصائبة إلى المرأة بصورة عامة، وهذا ينعكس على ما تنتجه من أدب يصفه الآخرون باللين والضعف في الأسلوب، وينظرون إليه نظرة دونية، حيث إنه – بزعمهم – لا يرقى إلى مستوى الأدب الذي تنتجه قرائح الرجال.

ومن ذلك ما قاله «التنوخي» معلِّقاً على جملة أبيات للشاعرة عابدة بنت محمد الجهنية؛ حين هجت أبا جعفر محمداً بن القاسم التنوخي، تعيبه بقصر قامته، وهزال جسمه: «فهجته هذه المرأة بما تحقق عندي أنها صادقة فيه؛ لأنه يليق بكلام النساء، وقد كانت تنشدني أفحل من هذا الكلام»(1).

ب – الصفة الغالبة على شعر النساء هي نظم النوع الخفيف، أي: المقطعات الشعرية السهلة الحفظ، والتناقل في المجالس، وبين الناس، وكأن هذا يُقلِّل من المكانة الأدبية للمرأة الشاعرة.

ج – إن هناك عدداً من الكتب المصنَّفة عن النساء – كما ذكر ذلك النديم في كتابه (الفهرست)(2) وياقوت الحموي في (معجم الأدباء) (3) – جاء أكثره في أخبار النساء، ومحاسنهن، وأحوالهن الاجتماعية، دون الاهتمام بالجانب الأدبي. وكل ما

---

(1) نشوار المحاضرة، التنوخي، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، 1972م،223/2– 224.

(2) يُنظر كتاب (الفهرست) للنديم، حققه رضا تجدد، دون ذكر اسم الدار الناشرة، 1973م، ص: 128، 147، 158.

(3) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ، 215/1، 134/4، 309/19.

ورد لا يرتفع عن مستوى المقطعات الشعرية، وما عرض من قصائد طويلة إنْ هو إلا قليل لا يرقى إلى مرتبة القاعدة وامتدادها.

وعلى الرغم من ذلك كان للمرأة أثر في ميداني الشعر والنثر؛ مما يشي بانخراط المرأة في النشاط الفكري، وتجاوبها مع الناحية الثقافية، ولاسيما في العصر العباسي، سواء أكان ذلك على مستوى الحرائر، أم الإماء.

وسأبين في الصفحات التالية نواحي أدب المرأة نظماً وشعراً في ظلال العباسيين.

أولاً – أدب المرأة الشاعرة في العصر العباسي:

لم تقتصر المرأة الشاعرة في العصر العباسي على موضوعات تخصُّها وحدها، بل شاركت الرجال الشعراء في الموضوعات المتعارف عليها، كالغزل، والزهد، والرثاء، والمديح، والهجاء.

أ – الغزل:

وهو موضوع شعري يناسب المرأة؛ لأنها تنفِّس من خلاله عن مشاعرها الفياضة، وتظهر نفثاتها الحرى إزاء معاناتها من آلام الجوى، وحرقة الهوى.

وقد تبوَّأت علية بنت المهدي مكانة لا تُضاهى في عالم الشعر، فقد كانت «لطيفة المعنى، رقيقة الشعر، حسنة مجاري الكلام» (1).

وكانت تكتم هواها في فؤادها، ولا تستطيع أن تذكر اسم المحبوب، فهي من أكمل النساء عقلاً، وأحسنهن ديناً، وصيانة، ونزاهة(2)، من أجل ذلك اضطرت إلى الكتمان نتيجة شعورها بالرقابة الاجتماعية، فقالت:

---

(1) زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربي، مصر، 1970، ص:10.

(2) المحاسن والأضداد، الجاحظ، مطبعة الساحل الجنوبي، لبنان، منشورات مكتبة العرفان، بيروت، ص: 230.

يا ذا الذي أكتم حُبِّيه   ولستُ من خوف أُسمِّيه
لم يدرِ ما بي من هواه ولم   يعلمْ بما قاسيتُه فيه(1)

ولا تكتفي عليةُ بالتعبير عن حرمانها، بل تزداد تحمُّلاً في هواها، فلا تُفصح بالبكاء ولا تعبر من خلاله عن مشاعرها تجاه الحبيب، مكتفية برؤيته في قلبها الذي أمضّه الحب، وكواه حتى الصميم. تقول:

باح بالوَجْدِ قلبُك المستهام   وجرتْ في عظامك الأسقام
يوم لا يملك البكاءَ أخو الشَّـ   ـوقِ فيشفى ولا يرد السَّقام(2)

وهذا ما دفع بالشاعرة للوصول إلى اليأس من وصال الحبيب، فإذا بها تشكو ضارعةً، وتُعبِّر عن انقطاع رجائها، وبَتِّ أسباب اللقاء، تقول:

أيا ربِّ! حتى متى أضرعُ   وحتّام أبكي وأسترجعُ
لقد قَطَعَ اليأسُ حبل الرَّجا   ءِ فما في وصالك لي مطمعُ(3)

واستطاعت عليةُ أن تعطي صورة – من خلال شعرها – للمرأة في عصرها، وما كانت تعاني من مجتمعٍ يقف بالمرصاد لعواطف المرأة، ويصدها بعنف عن التعبير عن أحاسيسها، ولما أحسَّت الشاعرةُ بقسوة واقعها، وتحلل كثير من الرجال، حين أباحوا لأنفسهم ما حرَّموه على المرأة، إذا بها تقول:

تعالوا ثمَّ نصطبحُ   ونلهو ثم نقترحُ
ونجمعُ في ملذَّتنا   فإنَّ القومَ قد جَمَحُوا(4)

---

(1) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق، الصولي، نشره ج.هيورث،1936م، ص: 71.

(2) المصدر السابق، ص: 65.

(3) المصدر السابق، ص: 68.

(4) المصدر السابق، ص: 76.

إلا أن الواقع الذي كانت المرأة العباسية تحياه؛ لم يسمح لها أن تشاطر الرجل فيما يفعل، فترتدُّ يائسة، قانطة، لا تستطيع حراكاً فيما تفكر فيه، أو تحلم به. تقول:

الشوق بين جوانحي يتردَّدُ   ودموعُ عيني تستهلُّ وتنفدُ
إني لأطمع ثم أنهضُ بالمنى   واليأس يجذبني إليه فأقعدُ(1)

ومن هنا توصَّلت عليةُ إلى أن الحب مبنيٌّ على الظلم، وأن التذلل في رحاب الحب مفتاح يُوصل إلى الانشراح، وانكشاف الغم، والخلاص من الشدائد، والمهمُّ في الأمر أن يكون الحب خالصاً صادقاً. تقول:

بُني الحبُّ على الجَورِ فلو   أَنْصف المعشوقُ فيه لَسَمُجْ
ليس يُسْتَحْسَنُ في حُكْم الهوى   عاشقٌ يُحْسِنِ تأليفَ الحُجَجْ
لا تَعِيْبَنَ من مُحِبٍّ ذِلَّةً   ذِلَّةُ العاشق مفتاحُ الفَرَجْ
وقليلُ الحبِّ صِرْفاً خالصاً   لكَ خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِجْ(2)

ولعليَّة رؤية مقنعة في الحب، ذلك أنه يتصف بالمشقات، والمتاعب، والحرمان، ونحو ذلك، وعلى الرغم من هذه الصعوبات، فإنَّ فيه حلاوة الرسائل التي تجري بين المحبين، وهي التي تهب السعادة لهم، وتُثبِّت الحب بينهما بوشائج قوية لا تنقطع.

تقول داعية إلى التمسك بحبال الحب:

---

(1) المصدر السابق، ص: 76.

(2) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، 174/10.

تَحبَّبْ فإنَّ الحبَّ داعيةُ الحبِّ   وكم من بعيد الدَّارِ مستوجبُ القربِ
تَبَصَّرْ فإنْ حُدِّثْتَ أنَّ أخا هوى   نجا سالماً فارْجُ النَّجاةَ من الحبِّ
إذا لم يكن في الحب سخْطٌ ولا رِضاً   فأين حلاواتُ الرسائلِ والكُتْبِ(1)

وتترامى خديجةُ بنت المأمون على أعتاب المحبوب، من خلال صورة جميلة، تجعلها تتمنى أن تصبح حَماماً أو باشقاً يفعل به ما يريد. وكان للقافية الشعرية دور مؤكَّد في إضفاء مسحة جمالية متألقة. تقول:

بالله قولنَّ لمن ذا الرَّشا   المثقل الردفِ الهضيم الحَشَا
أظرفُ ما كان إذا ما صحا   وأملحُ الناس إذا ما انتشى
وقد بنى بُرْجَ حمامٍ له   أرسلَ فيه طائراً مرعشا
ياليتني كنتُ حَماماً له   أو باشقاً يفعلُ بي ما يشا(2)

أما الجارية عنان فكانت شاعرة متمكنة، ويكفيها أنها استطاعت أن تصوِّر الحب، والعلاقة الودية مع الرجل؛ في مختلف الأحوال. ولو لم يكن لها سوى هذا البيت لكفى دلالة على مقدرتها الفنية. تقول:

ويبكي فأبكي رحمةً لبكائه   إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما(3)

وهذا غاية التماهي العاطفي في ميدان الغزل، حين بدت هذه المرأة قادرة على الإفصاح عن المشاعر، بل الوصول إلى مرتبة رفيعة.

---

(1) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، 176/10.

(2) نزهة الجلساء في أشعار النساء، السيوطي، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المكشوف، بيروت، ط1، 1958م، ص: 54. والبيت الرابع يُنسب إلى إسحاق الموصلي.

(3) المستظرف من أخبار الجواري، السيوطي، تحقيق صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1963م، ص: 39.

ب – الزهد:

اتسعت حركةُ الزهد والتصوف في العصر العباسي نتيجة عوامل عدة، وأسهمت المرأة في هذه الحركة، وكان لها دور فاعل للغاية؛ إذ نالت غذاءً روحياً هيَّأها للتعبير عن موضوع الزهد بتفرعاته وتشعّباته.

ويأتي في مقدمة الزاهدات الشاعرات: رابعة العدوية؛ التي استغرقت في الحب الإلهي، ومَلَك عليها ذاتها ومشاعرها، فانطلقت تصدح بأرق الشعر وأعذبه قائلة:

أحبُّك حُبَّين: حُب الهوى   وحُبّاً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حُبُّ الهوى   فَشُغْلي بذكرك عمن سِواكا
وأما الذي أنتَ أهلٌ له   فكَشْفُكَ للحجبِ حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا وذاكَ لي   ولكن لكَ الحمدُ في ذا وذاكا(1)

وعبّرت عن كون الخالق حبيبَها، فكانت تناجيه على الدوام، فهو سبحانه وحده المطلع على فؤادها، ولا يغيب عن خاطرها. تقول:

حبيبٌ ليس يعدله حبيبُ   وما لسواه في قلبي نصيبُ
حبيبٌ غاب عن بصري وشخصي   ولكن عن فؤادي ما يغيبُ(2)

ويبقى فؤادها معلقاً بحب الله، وإن عاشت حياتها الواقعية، وجالست الناس، فهي معهم بجسدها وشكلها الخارجي، أما قلبها فهو متصل بالذات الإلهية. وهذا أساسُ مذهبها في الزهد، إنه الاستغراق في حب الخالق، ونشدان الاتصال الروحي بالمولى عز وجل، بحيث كانت الإرهاص الأهم لشعر الصوفية فيما بعد.

---

(1) شهيدة العشق الإلهي، عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م، ص: 73.

(2) شاعرات العرب، جمع وتحقيق عبد البديع صقر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1967م، ص:125.

وإذا كانت علية بنت المهدي قد وجدت ملاذها في التعبير عن الحب البشري، والاكتواء بناره، فإن رابعة العدوية انقطعت إلى الله زهداً وتصوُّفاً. وتبقى الحالتان تعبيراً عن هموم المرأة في العصر العباسي؛ الذي حدَّ من نشاط المرأة متمسكاً بذرائع تنأى عن الإقناع.

ولم تكن رابعة وحدها في ميدان الزهد والتصوف، بل شاركتها أُخْريات من بنات جنسها، فريحانةُ الزاهدة ترى أن النفس ينبغي أن تُلْجَم عن مطاردة اللذات، واستجلابها، فهي لا تقنع بحدٍّ معين، بل تطلب المزيد على الدوام؛ فإن اعتادت على الحرمان صبرت عليه، وهان كل شيء. تقول:

صبرتُ عن اللذات حتى تولت   وألزمتُ نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلُها الفتى   فإن أُطْمِعَتْ تاقتْ وإلا تسلَّت(1)

وكانت دعوتها صادقة إلى الالتزام بقيام الليل، والتهجد فيه، وذكر المولى عز وجل، وطرد النوم لأنه ملهاةٌ وخسران مبين. تقول:

اجعلْ لنفسك في الليالي نبهةً   تُنْبهك من خلل المنام قياما
وائْنَس إلى طول القيام مخلداً   واتركْ لذيذَ النوم والأحلاما(2)

وتحدثت ميمونة عن مكاشفة القلوب، وأشارت إلى الخمر التي كان المتصوفون يرمزون من خلالها إلى كأس الحب الإلهي. تقول:

قلوبُ العارفين لها عيونٌ   ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بِسرٍّ قد تناجي   تغيبُ عن الكرام الكاتبينا

---

(1) عقلاء المجانين، للحسن بن محمد النيسابوري، تقديم محمد بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، ط2، 1968م، ص: 147.

(2) المصدر السابق، ص: 147.

وأجنحة تطير بغير ريشٍ   إلى ملكوت ربِّ العالمينا
فتسقيها ترابَ الصدق صدقاً   وتشرب من كؤوس العارفينا[1]

ودعتْ شاعرات الزهد إلى التخلي عن الدنيا، والتحلي بالصالحات، فالدنيا تغرُّ ساكنها، وكل شيء فيها يحمل النقيض؛ لذا يجب البعد عنها مهما بدت جميلة. تقول ست النساء بنت طولون:

دع الدنيا لعاشقها   سيصبحُ من ذبائحها
أرى الدنيا وإن مُدِحَتْ   تنصُّ على فضائحها
فلا تغررك رائحةٌ   تصيبك من روائحها[2]

ويحمل شعر الزهد الرقة في العبارة، والسهولة في التركيب، واستخدام العلوم الدينية، في بساطة تعبيرية تحدد خصائص المرأة، بعيداً عن الإغراب والغموض.

ج – الرثاء:

ليس أغلى على قلب الأم من ولدها، فإذا اخترمته المنية التاع فؤادها، ومضت تبكي فقيدها بعاطفة صادقة، وحزن يتجدد كل آن. وهاهي زبيدة بنت جعفر الهاشمية، أم الخليفة الأمين العباسي. حين قُتِل رثته بأبيات جياشة بالأحاسيس الإنسانية، قالت:

أودى بإلفكَ مَنْ لم يتركِ الناسا   فامنحْ فؤادَك عن مقتولك الياسا
لما رأيتُ المنايا قد قَصَدْنَ له   أَصبْنَ منه سوادَ القلبِ والرَّاسا
والموتُ دانٍ له والهمُّ قارَنَهُ   حتى سقاه الذي أودى به الكاسا
رُزِئتُه حين باهيتُ الرجالَ به   وقد بنيتُ به للدَّهر آساسا[3]

---

(1) المصدر السابق، ص: 151.

(2) نساء الخلفاء، الساعي الخازن البغدادي، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، ص:127.

(3) مروج الذهب، المسعودي، مطبعة السعادة، مصر، 1958م، 323/3.

ولعلَّ أروع شعرٍ في الرثاء نقف عليه في بطون الكتب؛ هو ما قالته الفارعةُ بنتُ طريف في رثاء أخيها الوليد الذي قُتِل في المعركة، فبكته أختُه أحرَّ البكاء، وعدَّدت نعوته الحميدة، فهو الشجاع الأبي، والكريم السخي، والتقي العابد. وهي تخاطب شجر الخابور، وتعاتبه على عدم مشاركته بالحزن على أخيها، فتقول:

فيا شجرَ الخابور مالكَ مُورِقاً   كأنك لم تحزنْ على ابن طريفِ
فتى لا يلومُ السيف حين يهزّه   إذا ما اختلى من عاتقٍ وصليفِ
فتى لا يحبُّ الزادَ إلا من التقى   ولا المال إلا من قنا وسيوفِ
فقدناه فقدان الربيع وليتنا   فديناه مِنْ ساداتنا بألوفِ
حليف الندى إنْ عاش يرضى به الندى   وإن مات لا يرضى الندى بحليفِ
فإنْ يكُ أرداه يزيدُ بن مزيد   فيا رُبَّ خيلٍ فَضَّها وصفوفِ(1)

ومن الظواهر الجديرة بالتسجيل: رثاء الأزواج؛ لما فيه من صدق، وواقعية، وتدفق في المشاعر، ولهفةٍ من الزوجة الثكلى. ومن ذلك ما قالته لبانة ابنة عليّ بن المهدي حين قُتِل الخليفة الأمين، ولم يكن قد دخل بها:

أبكيكَ لا للنَّعيم والأُنْسِ   بل للمعالي والرُّمح والتُّرْسِ
أبكي على سيِّدٍ فُجِعْتُ به   أَرْملني قبلَ ليلةِ العُرْسِ
يا مالكاً بالعراءِ مُطَّرحاً   خانَتْهُ أشراطُه مع الحَرَسِ(2)

وحين مات الخليفةُ المأمون، اشتد حزن جاريته (تتريف) عليه، وبكته بدموع غزيرة، وأقبلت ترثيه رثاء حاراً، وتفديه بنفسها، حتى وافاها الأجل ودموعها سخام على خدَّيها. ومن ذلك قولها:

---

(1) شاعرات العرب، ص: 374 – 376.

(2) مروج الذهب، المسعودي، 323/3. وتاريخ الأمم والملوك، الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، 501/8.

يا ملكاً لستُ بناسيه   نَعَى إليَّ العيشَ ناعيه
واللهِ ما كنتُ أرى أنني   أقومُ في الباكين أبكيه
واللهِ لو يُقْبَلُ فيه الفدا   لكنتُ بالمهجةِ أفديه
عاذلتي في جزعي أَقْصِري   قد علقَ الرهنُ بما فيه(1)

وهذا حزن طبيعي من المرأة الجارية تجاه سيدها؛ الذي طالما أغدق عليها عطاياه، ورفع منزلتها، ورعاها في كنفه، فَوُجِدَ مقابل ذلك رثاء حزين وفاءً للصلات الطيبة.

د – المديح:

لم تُعرف المرأة شاعرة احترفت فن المديح؛ إلا أن المقطعات التي وردت إلينا في ثنايا المصنَّفات؛ توحي بمشاركة المرأة في هذا الفن الشعري، ولاسيما فَضْل الشاعرة؛ التي كان «لها في الخلفاء والملوك المدائح الكثيرة» (2).

إلا أن الباحث لا يجد في المصادر الأدبية والتاريخية شيئاً من شعر (فَضْل) في ميدان المدح، والسبب هو ضياع ذلك التراث في غياهب الزمن.

ويُحدِّث التنوخي عن عاتكة المخزومية أم الحسن السلامي؛ أنها حضرت مجلس عضد الدولة ببغداد في عيد الفطر سنة (367هـ)، وأنشدت لنفسها قصيدة طويلة، ضَمَّنتها أبياتاً مدحية، منها:

شتَّان بين مدبِّر ومدمِّر   صيد الليوثِ حصائدَ الغزلانِ
روَّعتُه من بعد دهرٍ راعني   وسقيتُه ما كان قبلُ سقاني

---

(1) المستظرف من أخبار الجواري، السيوطي، ص: 18.

(2) طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، 1977م، ص: 426.

فلقد سهرتُ ليالياً ولياليا   حتى رأيتُكَ يا هلالَ زماني(1)

ولعليّة بنت المهدي شعر في مدح أخيها الرشيد، فهو الإمام ذو الرأي الصائب، والمرتجى لكشف الكروب والنوازل الشديدة، فقالت:

قل للإمام ابن الإمام   مقالَ ذي النُّصْح المصيبِ
لولا قدومُكَ ما انجلى   عنَّا الجليلُ من الخطوبِ(2)

أما الحجناءُ بنتُ نصيب الشاعر المشهور فقد دخلتْ على العباسة بنت المهدي، فأثنتْ عليها بأبيات شعرية جميلة، ومدحتها بصفات الخير، والحياء، والسخاء، وطلبت منها قضاء حوائجها؛ فقالت:

أتيناك يا عباسةَ الخير والحيا   وقد عَجَفَتْ أُدْمُ المهارى وكَلَّتِ
وما تركتْ منا السُّنونَ بقيةً   سوى رِمَّةٍ منا من الجَهْدِ رَمَّتِ
فقال لنا من ينصحُ الرأيَ نفسَه   وقد ولَّتِ الأموالُ عنا فقلتِ
عليكِ ابنةَ المهدي عُوذي ببابها   فإن محلَّ الخيرِ في حيثُ حَلَّتِ(3)

فأمرت لها بثلاثة آلاف درهم، وكُسْوةٍ، وطِيْب.

وقد مدحت عنانُ الشاعرة جعفراً البرمكي، فوصفته بالبراعة، والقدرة على سياسة أمور الرعية بحنكة وعدل، علاوةً على أنه واسع الصدر، حازم الرأي، قويُّه. قالت:

بديهتُه وفِكْرتُه سواء   إذا التبسَتْ على الناس الأمورُ
وصدر فيه للهمِّ اتِّساعٌ   إذا ضاقتْ من الهمِّ الصدُّورُ
وأحزم ما يكون الدهر رأياً   إذا عجز المشاورُ والمشيرُ(4)

---

(1) نشوار المحاضرة، التنوخي، 267/5.
(2) أشعار أولاد الخلفاء، الصولي، ص: 72.
(3) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، 16/23.
(4) الوزراء والكُتَّاب، الجهشياري، تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1938م، ص: 504 – 505. والأبيات تُنسب لأشجع السلمي، وسلم الخاسر، وعلي بن الجهم.

ولا ريب في أن مشاركة النساء في مجال المدح كانت مشاركة متواضعة؛ لم تَرْقَ إلى مستوى المدائح التي قالها الشعراء الرجال؛ التي غطَّت مساحة واسعة من الشعر العربي. وكانت المعاني تقليدية، ليس فيها جديد، فهي الصفات المحمودة القديمة نفسها، فقد نهلت في العصر العباسي من نبع الثقافة السائدة، والتزمت المعاني المستخدمة في الأغراض الشعرية.

هـ - الهجاء:

أُثِر عن طائفة من الشاعرات في العصر العباسي أنهن نظمن شعراً في موضوع الهجاء؛ لأسباب مختلفة تستدعي التراشق بسهام التهاجي، وذِكْر المعايب.

ومن ذلك ما قالته عنان الشاعرة في هجاء الشاعر المشهور أبي نواس، فنظمت شعراً سهلاً، يقترب من الشعبية؛ لسهولته على اللسان، وقدرة الآخرين على حفظه وترديده كل آن، فقالت:

أبو نُواس اليماني   وأمّه جُلُّبانِ
والنَّغل أفطنُ شيءٍ   إلى حروف المعاني(1)

وحاول أبو نواس أن يردَّ عليها، وكانت بينهما محاورات شعرية طريفة نجدها في مقدمة ديوان أبي نواس(2).

وذات يومٍ تجشَّأ أبو نواس في وجه عنان، فهجته هجاء مريراً، أثَّر فيه، وأزعجه، ونال منه، وكانت الصورة الشعرية جديدة؛ لأن معناها غير تقليدي، فهو هجاء بقبح رائحة الفم.قالت:

---

(1) المستظرف في أخبار الجواري، السيوطي، ص: 42. والمشهور أنهما لأبان اللاحقي مع اختلاف الرواية.

(2) ديوانه ــ طبعة المكتبة العمرية ــ القاهرة، 1898 م.

يا نواسيّ يا نفايةَ خَلْقِ الله   قد نِلْتَ بي سماءً وفَخْرا
متْ إذا شئتَ قد ذكرتُكَ في الشعـ   ـر وجَرِّرْ أذيالَ ثوبك كبرا[1]

وقال أبو الفرج الأصبهاني: كانت لأم جعفر جارية يقال لها: طُغْيان، فَوَشَتْ بِعُلَيَّة إلى رَشَأ، وحكتْ عنها ما لم تقلْ، فقالت عُلَيَّةُ:

لِطُغْيانَ خُفٌّ مُذْ ثلاثين حِجَّةً   جديدٌ فلا يَبْلى ولا يتخرَّقُ
وكيف بلا خُفٍّ هو الدهرَ كلَّه   على قدميها في الهواء مُعلَّقُ
فما خَرَقَتْ خُفّاً ولم تُبْلِ جَوْرباً   وأمّا سراويلاتُها فَتُمزَّقُ[2]

وهذه أبياتٌ يختلط فيها الهجاء بالفحش.

ومن الواضح أن هذا الهجاء صَدَرَ عن أسباب شخصية بحتة، فيها ظَرْف ومنافسة، والشعر المذكور في المصنَّفات يدل على تدهور الأخلاق وتدنِّيها، إذ اتخذ الهجاء وسيلة للعبث والسخرية بالآخرين مما ينحدر بمستوى القائل درجات كثيرة، ويسمه باستخدام الألفاظ المستكرهة، والمعاني المبتذلة.

ثانياً – أدب المرأة الناثرة في العصر العباسي:

كان العصر العباسي عصر ثقافة واسعة، وآداب منتشرة، شارك فيها الرجل والمرأة، وأثبتت الثانية أن لها دوراً تستحقه بجدارة في مجال الكتابة النثرية.

وسأتناول فيما يلي بعض الميادين النثرية التي برعت فيها المرأة في العصر العباسي.

أ – أدب المراسلات الشخصية:

كان للمرأة الكاتبة في عصر بني العباس مراسلات ومكاتبات فيما يتعلق بأمور حياتها الخاصة، والمواقف الاجتماعية، وهذا هو الغالب على هذا النوع من الكتابة؛ كالعتاب، والوصل، والحنين، والهجر، ونحو ذلك.

---

(1)المصدر السابق، ص: 40 – 41.

(2) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، 167/10.

وقد نقل ابنُ المعتز بعض مراسلات (عَرِيْب) المغنية الشاعرة، فقال: (قرأتُ في مكاتباتٍ لعريب فصلاً من جواب أجابت به إبراهيم بن المدبّر في مكاتبة بديعة بعيادة: «قد استبطأتُ عيادتك – قُدِّمتُ قبلك – ... أستديم اللهَ نِعَمَهُ عندك» (1).

قال: وكتبتْ إليه أيضاً: «أستوهب اللهَ حياتك، قرأتُ رقعتَكَ المسكينة؛ التي كلَّفْتَها مسألتك عن أحوالنا، ونحن نرجو من الله أحسنَ عوائده عندنا، وندعوه ببقائك، ونسأله الإجابة، فلا تُعوِّد نفسك – جعلني الله فداءها – هذا الجفاءَ، والثقةَ مني بالاحتمال، وسرعة الرجوع») (2).

كذلك كانت (فضل) الشاعرة تكتب نثراً مرموقاً له قيمة فنية، يُشْبِه طريقة الكاتب العباسي المترسِّل سعيد بن حميد؛ الذي قلَّده الخليفة المستعين ديوان رسائله، وقد قال بعد وفاة فَضْل: «ما رسائلي المدوَّنة عند الناس إلا من إنشائها» (3).

وهذه شهادة من أديب كبير، تعيد الحق إلى نصابه، وتُرْجِع الأمور إلى أصولها وبُناتها الحقيقيين.

وذات مرة كتبت إلى سعيد بن حميد تعاتبه: «فإن قطعتَ عنا عادة البرِّ تمسَّكْنا بعادتنا في الشكر، وحملنا الذنبَ على الدهر، وإنْ تكن الأخرى فلم نعد الظن، ولم تأتِ بديعاً من الأمر» (4).

ومن الرسائل المتميزة ما كتبته إحدى الجواري إلى مولاها الخليفة المأمون، ووضعت مع رسالتها تفاحة تودُّداً إليه، ومما قالته في تلك الرسالة: «فإذا وصلتْ إليك يا أمير المؤمنين؛ فتناولها بيمينك، واصرفْ إليها يقينك، وتأمَّلْ حُسْنَها بطرفك، ولا

---

(1) المصدر السابق، 22/172 – 173.

(2) المصدر السابق، 22/173.

(3) طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص: 426.

(4) المستظرف من أخبار الجواري، السيوطي، ص: 54.

تخدشها بظفرك، ولا تبعدها عن عينيك، ولا تبذلها لخدمك. فإذا طال لبثُها عندك، ومقامُها بين يديك، وخِفْتَ أن يرميها الدهرُ بسهمه، ويقصدها بصرفه، فَيُذْهِبَ بهجَتها، ويُحيلَ نضرتها، فَكُلْها» (1).

وهذه الرسالة تتضمن محسنات أسلوبية بلاغية، كالسجع، والترادف، والاستعارة، علاوة على الأسلوب السهل الممتنع، وبذا يرتقي هذا النص إلى مستوى التأليف التعبيري، من خلال رسالة مصنوعة صناعة بديعة، تجلّت في عذوبة الألفاظ، ومتانة التراكيب، وترتيب الأفكار، وعمق دلالة المضمون.

ولو كانت رسائل النساء في ذاك العصر في مستوى رسالة التفاحة؛ لكنا وقفنا على فن نثري بديع ورقيق، فيه من المشاعر الإنسانية ما فيه.

ب – أدب التوقيعات:

كان للتوقيع معنى خاصّ في عصر بني العباس، فهو الكلمة الوجيزة التي يُوقِّع بها الخليفة أو وزيره – مثلاً – على حواشي ما يُرْفَعُ إليه من قصص ومظالم ونحوها. ويغلب عليها الإيجاز، واجتماع المعاني، وحُسْن الرونق، والسهولة، مع سِمة البلاغة(2).

ولكن لم تقتصر التوقيعات على كبار رجال الدولة، بل كان للنساء نصيب منها، ولاسيما في مسائل المعاملات المالية، والعلاقات الاجتماعية؛ مما يدل على أن للمرأة مشاركة في المجتمع العباسي، وإن كان الذي وَصَل إلينا من توقيعات النساء قليلاً من حيث الكم.

---

(1) العقد الفريد، ابن عبد ربه، اعتنى به أحمد أمين ورفيقاه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3، 1965م، 288/6.

(2) موسوعة عصر سلاطين المماليك، الدكتور محمود رزق سليم، مكتبة الآداب بالجماميز، 1955م، 138/5 – 139.

هذا، وكان للخيزران – زوج الخليفة المهدي، وأم ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد – توقيع بعد أن أرسل عمرُ بن مهران إليها – وكان كاتبها – رسالة يذكر فيها نفسه كثيراً، ويرفع من شأن ذاته، فأرسلت إليه توقيعاً مفاده: «وقد وصل كتابُكَ تذكر وتذكر، ولا تستكثرن شيئاً يكونُ منك، واستدمْ أحسنَ ما أنتَ عليه يَدُمْ أحسنُ ما عندي لك. واعلمْ أنه قلَّ شيء لم يزد إلا نقص، والنقصان يمحق الكثير كما ينمى على الزيادة القليل» (1).

وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه كان لعُلَيَّة بنت المهدي وكيلٌ يقال له سِباعٌ، وقعتْ على خيانته، فضربته وحبسته، فاجتمع جيرانُه إليها، فعرَّفوها جميلَ مذهبه، وكثرة صِدْقه، وكتبوا بذلك رقعة، فوقَّعتْ عليها:

ألا أيُّهذا الراكبُ العِيْسَ بَلِّغَنْ   سِباعاً وقُلْ إن ضَمَّ داركُم السَّفْرُ
أتسلُبني مالي وإن جاء سائلٌ   رَقَقْتَ له إنْ حَطَّهُ نحوكَ الفقرُ
كشافيةِ المرضى بعائدةِ الزِّنى   تُؤمِّلُ أجراً حيثُ ليس لها أجرُ (2)

وهناك توقيعات يستشف منها الباحث روح الكياسة والذكاء والبراعة، من ذلك أن جارية مغنية تُدعى مصابيح، غاضبها في أحد الأيام عبدُ الله بن العباس– وكان يهواها -، ثم ترضَّاها، فغلبها الدَّلال، وأبتْ أن تصالحه، فما كان منه إلا أن كتب إليها يتنصَّل من إغضابها، ويذكر أنه لم يُرِدْ إزعاجها، ثم دعا على مَنْ ظَلَم، فردَّت عليه (مصابيح) بتوقيع متألق، إذ كتبت تحت عبارة الدعاء: «على الظالم آمين» (3).

---

(1) الوزراء والكتاب، الجهشياري، ص: 221.

(2) الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، 183/10.

(3) الديارات، الشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط3، 1986م، ص: 67.

وهذا التوقيع فيه الإيجاز، مع حُسْن الانتقاء، وبلوغ المقصد؛ إذ حقَّق الغاية المطلوبة، مع اتِّسامه بخفة الظل، وكثرة الظَّرْف.

وكان محمد بن الحسين بن جمهور العَمِّي أديباً حَسَن الترسل، وكان له مع (زاد مهر) - جارية المنصور – أحاديث طريفة، ثم تأتَّى له أن اشتراها، وهجرته يوماً، فكتب إليها: «ياسيدةَ عبدها، واللهِ إن الذي بلغكِ باطل، لكني أعترف به طاعةً لكِ». فوقَّعتْ على ظهر الرقعة: «ما لكَ تغمُّ نفسك، وتتنطَّعُ في كتب الأشعار؟! وَجِّهْ إليَّ بالغِلالة، وقد اصطلحنا!!» (1).

وبلغت بعض النساء بتوقيعاتها مبلغاً عظيماً في عالم الأدب، وتفوّقت في هذا الميدان على كثير من الأدباء الرجال المعروفين بترسُّلهم.

ذُكِر لعمرو بن مَسْعَدة – كاتبِ المأمون – توقيعاتُ جعفر بن يحيى البرمكي – وزير الرشيد العباسي – وهو موصوفٌ بفصاحة المنطق، وبلاغة القول، فقال: «قرأتُ لأمِّ جعفر توقيعاتٍ في حواشي الكتب وأسافلها، فوجدتُها أجود اختصاراً، وأجمع للمعاني» (2).

ولا مِرْية في أن التوقيعات النسائية تُعَدُّ من الأدب النَّسوي العباسي المهم؛ فهي تشير إلى وجود أسلوب لغوي بارع في عالم القصور في العصر العباسي، ورعاية الحكام والمقربين منهم للغة العربية، والثقافة المعرفية سواء أكان ذلك يتعلق بالحرائر أم الجواري، فلم تكن المرأة بعيدة – ولاسيما في العصر العباسي الأول والثاني – عن الكتابة الفنية، وقوة التعبير، وسلاسة العبارة، وجزالة التراكيب.

---

(1) المصدر السابق، ص: 269.

(2) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1985م، 64/1.

v الملامح الفنية لأدب المرأة في العصر العباسي:

كان أدب المرأة في عصر بني العباس انطلاقة حضارية، واستجابة للثقافة السائدة آنذاك، من حيث الأغراض، والمعاني، وأساليب التعبير.

وأُشير بداية إلى أن المرأة شاركت في الموضوعات الشعرية المعروفة آنذاك، وذلك باتباع نظام المقطعات؛ التي تعتمد على رشاقة الأداء، وخفة الوزن؛ تأكيداً على أن المرأة تختلف عن الرجل في قول الشعر، فقد كانت مشاركتها الشعرية تتميماً لجملة المحاسن التي تتمتع بها، من الظرف، والدعة، والفِطنة، والكياسة.

إلا أن الأغراض الشعرية كانت تقليدية، لا جديد فيها، وأفكارها العامة لا تختلف عما كان الرجلُ يهتم به من بوح شعري.

وعبَّر الهجاء عن روح التنافس بين الجواري والآخرين؛ مما سبَّب تراشقاً في القول الفاحش البعيد عن روح المجاملة، فقاطَعَ الأخلاق مقاطعة كبيرة. كما حمل الهجاء في طياته دلالة على شيوع الخلاعة وانحطاط الخُلُق.

وكان الهجاء كالمديح: خفيف الوزن، بسيط المعنى، سهل الألفاظ، انسجاماً مع واقع المرأة، وأنوثتها الغضة. ألم يقل التنوخي في عابدة بنت محمد الجهنية الشاعرة الأديبة الفصيحة، بعد أن هَجَتْ أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي؛ الذي تقلَّد الوزارة للخليفة الراضي: «إنها كانت تهجو أبا جعفر، وإن لها فيه شعراً أفحل مما بين أيدينا منه» (1).

وارتبط الهجاء بذكر العيوب الخَلْقية والخُلُقية؛ التي تتعلق بالشكل، وتجريد المهجو من صفاته الحسنة، وإلصاق الصفات المرذولة به.

---

(1)نشوار المحاضرة، التنوخي، 224/2.

أما الغزل فعبَّر عن حال الظلم الاجتماعي الذي عاشته المرأة في ذلك الحين، فلم تستطع أن تحقق مبتغاها، فعاشت في حزن دفين، وبوح داخلي مليء بالحسرات، حيث استكانت المرأةُ لواقعها، وحاولت التمرد، وإطلاق عواطفها، بَيْدَ أنها عانت الحرمان المكبَّل باليأس والقنوط؛ لأن أكثر النساء لم يكنّ من الحرائر، وإنما كن جليبات.

واستطاعت المرأةُ أن تدخل عالم الزهد والتصوف، وتعرض ما تفتَّق عن قريحتها من نماذج شعرية رشيقة، تروي غليلها الشعوري، وتطفئ ظمأ روحها العاطفي.

واستخدمت المرأة في أشعارها الألفاظ السهلة، والتعابير الرقيقة؛ التي تكاد تقترب من الحديث اليومي، مع الحرص على البراعة، وحُسْن الأسلوب، والانفعال الشعوري. وكان نثر المرأة في العصر العباسي ومضات فنية جديرة بالتأمل، فقد ظهر التفننُ في الرسائل والمكاتبات؛ التي اتصفت باستخدام الجمل القصيرة، والنأي عن التكلف، فكانت المرأة تسترسل مع عواطفها ومواقفها، فضلاً عن غلبة الليونة في الأسلوب التعبيري؛ ليناسب رقة المرأة، وعذوبة روحها، وفتنة دورها في الحياة الاجتماعية والشعرية في العصر العباسي، عصر الحضارة والمدنية.

وكان للمرأة في العصر العباسي توقيعات تستحق الاهتمام؛ لأنَّها ذات قيمة فنية في ميدان الأدب، فقد اتصفت بالإيجاز، وقوة الأداء، ودقة اللفظ، ومتانة السبك.

v الخاتمة:

لم تكن المرأة عموماً في العصر العباسي أداة للهو والعبث والتهتك، فهذه الصورة تختص بطائفة الجواري والمغنيات، مع أن بعضهن كانت لهن سيطرة على قلوب الأحرار، بل على السياسة العامة للدولة آنذاك.

وقد ارتقت المرأة في ثقافتها ومعرفتها، فأُثِر عنها ما يُغيِّر الصورة المتعارف عليها، فإذا هي تقول الشعر في الأغراض المختلفة، فتمدح، وتهجو، وتتصوَّف، وتتغزل... ولم تقتصر على قول الشعر فحسب، بل خاضت لُجج النثر، فكان لها مراسلات، وتوقيعات، ووصايا، توضح قدرتها العقلية، وتدل على نشاطها الفكري، فهي ذات دور جليل، وبيان عربي أصيل.

وقد أبرزتُ دور المرأة في نظم الشعر، والاحتفاء بالنثر، وكانت النماذج المقدَّمة إرهاصات لبحوثٍ جادة تقوم على التنقيب في بطون المصادر؛ لاستخراج الدفائن الأدبية، وعرضها من جديد على بساط البحث والدراسة واستخلاص النتائج، من خلال منهج نقدي متعمق، يعطي المرأة حقها في زمن عزَّ فيه الإنصاف.

المصادر والمراجع

1- أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق، الصولي، نشره ج. هيورث، 1936م.

2- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، دون تاريخ.

3- تاريخ الأمم والملوك، الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، دون تاريخ.

4- الديارات، الشابشتي، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط3، 1986م.

5- ديوان أبي نواس، طبعة المكتبة العمومية، القاهرة، 1898 م.

6- زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1970م.

7- شاعرات العرب، جمع وتحقيق عبد البديع صقر، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1967م.

8- شهيدة العشق الإلهي، عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م.

9- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1985م.

10- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، 1977م.

11- العقد الفريد، ابن عبد ربه، اعتنى به أحمد أمين ورفيقاه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط3، 1965م.

12- عقلاء المجانين، للحسن بن محمد النيسابوري، تقديم محمد بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، ط2، 1968م.

13- الفهرست، النديم، حققه رضا تجدد، دون ذكر اسم الدار الناشرة، 1973م.

14- المحاسن والأضداد، الجاحظ، مطبعة الساحل الجنوبي، لبنان، منشورات مكتبة العرفان، بيروت، دون تاريخ.

15- مروج الذهب، المسعودي، مطبعة السعادة، مصر، 1958م.

16- المستظرف من أخبار الجواري، السيوطي، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1963م.

17- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

18- نزهة الجلساء في أشعار النساء، السيوطي، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المكشوف، بيروت، ط1، 1958م.

19- نساء الخلفاء، الساعي الخازن البغدادي، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، مصر.

20- موسوعة عصر سلاطين المماليك، الدكتور محمد رزق سليم، مكتبة الآداب بالجماميز، 1955م.

21- نشوار المحاضرة، التنوخي، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، 1972م.

22- الوزراء والكُتَّاب، الجهشياري، تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط1، 1938م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 22/11/2007.